

الإستاف: د. أيمن بوطرفة | جامعة أم البواقي، الجزائر | 2023 \ 2024

البرنامج السنوي لمقياس " فلسفة التاريخ " سنة 2 ليسانس ، تاريخ

المحور 1: السياق المفاهيمي

1. تعريفات ومفاهيم (الفلسفة ، التاريخ ، فلسفة التاريخ ، فلسفة الحضارة)
2. العلاقة بين الفلسفة، التاريخ وفلسفة التاريخ
3. الأسئلة الكبرى لفلسفة التاريخ

المحور 2: الغاية والمعنى من التاريخ

1. التاريخ والعناية الإلهية
2. التاريخ والحتمية الطبيعية
3. التاريخ والإرادة الانسانية
4. التاريخ العبثي

المحور 3: مسار التاريخ

1. مسار التاريخ الدوري
2. مسار التاريخ الخطي

المحور 4: نظريات معاصرة في فلسفة التاريخ

1. اطروحة نهاية التاريخ
2. اطروحة صدام الحضارات

المحور الأول : السياق المفاهيمي

لتحديد مفهوم الفكرة وجب أول تحديد تعريفها على مختلف المستويات الأفقية والعمودية، أي سياقها التعريفي، فسياقها التاريخي. وكذلك وجد تحديد طبيعة مختلف المفاهيم المشتقة والمتداخلة منها ومعها. وعليه يطرح التساؤل هنا حول مكونات سياق المفاهيمي لفلسفة التاريخ:

1. مدخل مفاهيمي :

1.1. الفلسفة:

لغويا الفلسفة، من الكلمة اليونانية القديمة $\phi\iota\lambda\epsilon\kappa\tau\omicron\sigma\phi\acute{\iota}\alpha$ / $\phi\iota\lambda\omicron\sigma\phi\acute{\iota}\alpha$ تتكون من $\phi\iota\lambda\epsilon\kappa\tau\acute{\epsilon}\omega$ / $\phi\iota\lambda\acute{\epsilon}\omega$ "الحب"، و $\sigma\phi\acute{\iota}\alpha$ / $soph\acute{\iota}\alpha$ "الحكمة أو المعرفة"، وتعني حرفياً "حب المعرفة" وعادةً "حب الحكمة". ذلك أن الفلسفة لا تعني "إملاك" الحكمة بقدر ما تعني محبتها والسعي الى التحلي بها.

أما مضمونا فيُعنى بالفلسفة مجالا فكريا متميزا، يبحث عن فهم العالم والحياة في كليتها وجزئياتها من خلال التساؤل والتأمل والتفكير العقلاني والنقدي، بحثا عن المعنى والغاية من الحياة وأنظمة التفكير الانساني والعالم برمته، من خلال التأمل والتساؤل حول المحيط الخارجي للإنسان بداية من الكون، الطبيعة، أم الأمور التي تحدد حياة الانسان من قيم وحياة اجتماعية وسياسية، في محاولة لتأسيس نظريات فهم ومعنى بطريقة عقلانية. فالهدف الأساسي من الفلسفة هنا يصبح المساعدة على فهم العالم والحياة وذواتنا، بطريقة عقلانية، بعيدا عن الأفكار المتوارثة والأحكام المسبقة الغير متحقق منها.

تنطلق الفلسفة من التأمل والمساءلة النقدية التي تنطلق الدهشة والحيرة أمام معضلات الحياة والإشكاليات الكبرى التي تواجهنا في الحياة اليومية وما تولده من قلق وجودي، باحثا عن المعنى الكلي من حركة الحياة والعالم والتاريخ.

1. 2. التاريخ:

يهتم علم التاريخ بالماضي، فهو مجال معرفي يدرس التاريخ الماضي والأحداث الماضية، حيث يهدف علم التاريخ لسرد الأحداث الماضية والتحقق منها ووضعها في سياقها الصحيح، لإيصال صورة صحيحة عن الماضي للمطلع عليه في الحاضر. حيث يهدف التاريخ الى نقل صورة وصفية عن الأحداث الماضية من خلال استخدام مناهج معينة، وهو ما يشرع وصفه ب"علم التاريخ".

التاريخ العام هو تاريخ الأحداث السياسية، فهو يرتبط بأهم الأحداث والتحويلات الاجتماعية والسياسية والدينية. كما أن التاريخ يمكن أن يجمل كل المجالات تقريبا، فهناك تاريخ للعلوم، تاريخ للفنون، تاريخ للفلسفة وغيرها...

1. 3. فلسفة التاريخ:

تعتبر فلسفة التاريخ أحد المجالات التي تهتم بها الفلسفة، فهي تجمع في اهتمامها بين التاريخ وبين الفلسفة، وإذا كانت الفلسفة تهتم بالتأمل في مكنونات الحاضر واستشراف المستقبل، وإذا كان التاريخ يهتم بالماضي، فإن فلسفة التاريخ تهتم بالأبعاد الثلاثة، فهي تهتم بدراسة التاريخ الماضي من أجل فهم الحاضر، واستشراف المستقبل بطريقة موضوعية.

تهدف فلسفة التاريخ عموما للسؤال عن المعنى العام الذي يحكم ويحرك التاريخ، كما تبحث عن الغاية منه وعن القوى التي تحركه وتسيره، وتهدف أيضا لإيجاد القوانين العامة التي تحكم التاريخ، وتحدد طبيعة مسارات حركة التاريخ، بحثا عن مصير الانسان داخل حركة التاريخ العامة.

1. 4. فلسفة الحضارة:

هناك مصطلح يتداخل مع فلسفة التاريخ وهو فلسفة الحضارة، لذا وجب على الأقل ايجاد تعريف يمكن ان يفضل بينهما، ففلسفة التاريخ بالعموم تضم فلسفة الحضارة، لان التاريخ

يدرس الحضارات والحضارات تعتبر أكبر وحدة تاريخية فهي تضم الدول والكيانات السياسية والثقافية والأديان وغيرها، لكن التاريخ أوسع من مفهوم الحضارة، لذا فإن فلسفة الحضارة بهذا المعنى هي جزء من كل الذي هو فلسفة التاريخ.

لا تدرس فلسفة الحضارة تاريخ الحضارة بل تدرس أسباب نهوض وسقوط الحضارات والقوانين التي تحكم تلك العملية، بالتالي يمكن تعريفها على أنها تتناول بالدراسة والبحث موضوع "الحضارة" من حيث أسباب نشأتها، تطورها، ازدهارها و ثم سقوطها، انحلالها واندثارها.

2. العلاقات

2. 1. العلاقة بين التاريخ وفلسفة التاريخ

يدرس علم التاريخ الأحداث الماضية، فمجاله المعرفي هو "الماضي" حصراً، كما يركز اهتمامه على دراسة أحداث تاريخية معينة بطريقة تفصيلية وجزئية. أما فلسفة التاريخ فهي تهتم بدراسة الأحداث التاريخية بشكل عام بحثاً عن اعطاء نماذج تفسيرية عن التاريخ العام، فهي وإن كانت تهتم بالماضي كتاريخ للأحداث، فإنها أيضاً تمتد باهتماماتها الى مجال الزمن الماضي والمستقبل. ذلك أن فلسفة التاريخ تهتم بأحداث الماضي بحثاً عن اعطاء نماذج فهم تفسيرية عن التاريخ تجعلنا نفهم الراهن والحاضر، ونستشرف المستقبل من خلال دراسة الماضي بحثاً عن المعنى العام من سيرورة التاريخ. ففلسفة التاريخ تتناول التاريخ في كليته ويمتد مجالها المعرفي الى الأبعاد الزمنية الثلاثة: الماضي ، الحاضر ، المستقبل. أما علم التاريخ فإنه يدرس الأحداث الجزئية والتفصيلية، ويهتم حصراً بالزمن الماضي.

2. 2. العلاقة بين الفلسفة والتاريخ

يتطلب تحديد العلاقة بين الفلسفة والتاريخ تحديد مهام وخصوصية كل منهما، فتهتم الفلسفة بالكليات وتطرح الاشكاليات العامة بحثاً عن المعنى والنماذج التفسيرية الكلية، أما التاريخ باعتباره "علماً" فهو يهتم بمواضيع محددة ودقيقة، أي أنه يهتم بالجزئيات بحثاً عن ايجاد

نموذج تفسيري عن قوانين تلك الظاهرة المحددة بالتفصيل والتدقيق. وعلى هذا فإن الفيلسوف المشتغل بالفلسفة حين يبحث في التاريخ فإنه يبحث عن نموذج فهم وتفسير عام للتاريخ. أما المؤرخ المشتغل بعلم التاريخ فإنه يبحث في حادثة محددة أو مرحلة تاريخية معينة، يركز فيها جهوده الفكرية واهتمامه البحثية. لكن هذا لا يعني القول بتعارض الفيلسوف والمؤرخ من الهدف أو الغاية، بقدر ما يحيل لعلاقة قوامها التكامل المعرفي المطلوب من كلا الطرفين.

ذلك أن "الفيلسوف" يحتاج للمادة المعرفية التاريخية الجزئية التي مكنه من خلالها القيام بالتركيب والاستنتاج لبناء نماذج تفسيرية كلية. وهكذا فإن معرفة تاريخية مؤسسة بموضوعية وعلمية ومتحقق منها تعد أحسن ما يمكن أن يطلق منه فيلسوف التاريخ في بناء نظريته. ذلك أن الانطلاق من مقدمات خاطئة يقو إلى الوصول إلى نتائج خاطئة، والعكس صحيح. بالتالي فإن نموذجاً تفسيرياً كلياً صائب يتطلب أولاً معارف جزئية صائبة. ومن هنا حاجة الفيلسوف للمؤرخ.

أما المؤرخ فإنه بحاجة إلى الفلسفة، وذلك بما توفره الفلسفة مناهج عقلية ونماذج تفسيرية تساعد المؤرخ على الخروج من تلك النمطية التي يمكن أن تحصره فيها دراسة الأحداث الجزئية. فالتاريخ إن كان علماً، إلا أنه ليس علماً دقيقاً مخبرياً، يمكن المؤرخ من الانفراد بالظاهرة والانعزال بها في المخبر. بل إن التاريخ ظاهرة إنسانية بامتياز، وينطبق عليها ما ينطبق على باقي الظواهر الإنسانية، من تداخل الذاتية مع الموضوعية، وصعوبة القبض على الظاهرة، ومرونتها وغيرها ... فالتاريخ هكذا هو لوحة كبيرة من الأحداث التاريخية، مثل لعبة "puzzle"، قد تحتاج نموذجاً تفسيرياً يرجع إلى المؤرخ مرة إلى مرة من أجل بناء صحيح للأحداث ووضعها في سياقها الصحيح. فحاجة المؤرخ للرؤية النقدية واستخدام المناهج العقلية تعني ضرورة حاجته إلى الفلسفة، وفلسفة التاريخ بالخصوص.

يمكن القول أن العلاقة بين المؤرخ والفيلسوف هي علاقة تكاملية، فالفيلسوف يحتاج لعمل وتحقيقات المؤرخ من أجل ضبط أفكاره وإخراجها من الذاتية إلى الموضوعية، والمؤرخ يحتاج

الفيلسوف من أجل اخراجه من النمطية والسذاجة التي يمكن ان تجعل منه مجرد آلة غير واعية لتدوين الأحداث.

3. الأسئلة الكبرى لفلسفة التاريخ

تبلور فلسفة التاريخ نظرياتها ونماذجها التفسيرية للتاريخ الانساني من خلال طرح مجموعة من التساؤلات والاشكاليات العامة، التي تتفرع منها بدورها مجموعة من الاشكاليات والأسئلة الجزئية، والتي يمكن تسميتها بالأسئلة الكبرى أو الرئيسية لفلسفة التاريخ، والتي يتم ذكرها أهمها في ما يلي:

1. هل للتاريخ معنى وغاية؟ وما طبيعتها؟

قوام هذا السؤال اشكالية المعنى والغاية والتساؤل حول طبيعة القوى التي تحرك التاريخ؟ وقد تعددت نظريات فلسفة التاريخ التي تبحث عن المعنى والغاية من التاريخ وانقسمت الى التي تقول بعدم وجود معنى واضح للتاريخ (النظرية العبثية) أو تلك التي تقول بوجود معنى للتاريخ -وهي تمثل التيار الغالب-، والتي بدورها اختلفت في طبيعة تلك الغاية والمعنى، فهناك من رده الى العناية الإلهية وقوى ميتافيزيقية خارج ارادة البشر، وهناك من رده الى برمجة طبيعية تتجاوز ارادة الانسان متمثلة في الحتمية الطبيعية، في حين هناك من رده الى فعل الانسان وإرادته ذاته، باعتبار الانسان هو البطل الرئيسي المحرك لمسرحية التاريخ.

2. هل الجماعات أم الافراد هم من يحركون التاريخ؟

اشكالية الفرد والجماعية وأيهم يؤثر في الآخر ويحركه تبقى أحد اهم الاشكاليات الجدلية المطروحة في فلسفة التاريخ، وهي اشكالية قوامها سؤال جدلي بين الارادة والحتمية، فإما قدرة وإرادة الأفراد والأبطال والعابرة على تغيير التاريخ، واما ان المجتمع العضوي هو الأصل في حركة التاريخ ، وأن الفرد ما هو في النهاية الى جزء من ذلك المجتمع وخاضع لحتمياته.

3. ما طبيعة مسار التاريخ؟

يتناول هذا السؤال طبيعة مسار التاريخ، محاول تحديد خصائص ذلك المسار واتجاهه وطبيعته، من خلال طرح الأسئلة الموالية الى أين يسير التاريخ؟ ومن أين بدأ؟ وإلى أين

سينتهي؟ وما طبيعة المسار الذي يسلكه التاريخ؟ هل يتقدم الى الامام باستمرار؟ أم انه يكرر نفسه؟ أم غير ذلك؟

وقد انقسمت أهم نظريات فلسفة التاريخ في هذا السياق الى فرعين : من تقول بالمسار الخطي، ومن تقول بالمسار الدوري.

4. هل التاريخ يقبل إصدار الاحكام الاخلاقية ؟

ان الاحداث التاريخية تحمل دوما تفاصيل صادمة، خصوصا الاحداث السياسية وما تحمله من حروب وخيارات يصعب اصدار الاحكام الاخلاقية بشأنها. فبأي معيار يمكن وصف شخصية تاريخية على أنها شريرة أم خيرة؟ وبأي معيار يمكن ان نصف الحدث الفلاني على انه فتح مبين أم أنه احتلال مدمر؟ هل التاريخ أصلا يقبل الاحكام الاخلاقية من خير وشر؟

5. سؤال الذاتية والموضوعية في التاريخ ؟

هل يمكن دراسة التاريخ دراسة موضوعية ؟ بحيث يمكن ان نجعل من منه علما نتائجه مضبوطة ومتفق عليها ؟ أم ان الذاتية هي سمة مرتبطة بطبيعة "التاريخ" ذاته، ولا يمكن اغفال حساباتها في دراسة التاريخ ؟

6. أي دور للفلسفة في تفسير التاريخ ؟

ما علاقة الفلسفة بالتاريخ ، وما علاقة الفيلسوف بالمؤرخ ، وكيف يستفيد كلهما من الآخر ؟ وكيف تساهم الفلسفة في قراءة التاريخ ؟ كلها أسئلة تتطرق لاشكالية مفهوم فلسفة التاريخ والعلاقة بين الفلسفة والتاريخ.

المحور 2 : المعنى والغاية من التاريخ

يعتبر سؤال المعنى هو السؤال المحوري في فلسفة التاريخ، لأن الحديث عن فلسفة للتاريخ، يعنى محاولة لايجاد نفسري عن معنى التاريخ غايته والقوانين المحركة له، وعليه فما هي أهم النماذج التفسيرية لسؤال المعنى والغاية من التاريخ ؟

1. التاريخ والعناية الإلهية

ان نظرية العناية الالهية مفادها أن التاريخ مسير من قبل عناية إلهية تحدد مسار التاريخ وتعطيه معنى وغاية. تظهر نظرية العناية الإلهية في التراث الديني بعامة والديانات الابراهيمية بخاصة ، حيث يتم اعطاء تصور ميتافيزيقي متكامل عن مسار التاريخ ، بدايته ونهايته والغاية منه. وفي هذا الصدد ظهرت بعض النظريات ذات الصيغة الفلسفية التي حاولت صياغة نظرية فلسفية عن العناية الإلهية التي تتحكم في التاريخ وكان من أبرزها محاولة القديس "أوغسطين الهيبوني".

يعتبر اوغسطين الهيبوني المعروف تاريخيا بالقديس أوغسطين أحد أهم الشخصيات الفكرية في تاريخ المسيحية ، فهو يعتبر أحد أهم آباء الكنيسة الكاثوليكية ، كما يعتبر أحد أهم المصادر الفكرية للفكر المسيحي ، وفلسفة القرون الوسطى بعامة. وقد دافع عن الكنيسة ومشروعية وجودها من خلال مشروع فكري صاغ من خلاله فلسفة في التاريخ اعدت لهذا الغرض ، حيث امتدت اهتماماته من التنظير في اللاهوت الديني الى مجال الفلسفة ، وصاغ اثرها نظرية العناية الإلهية التي ترى بأنه التاريخ معناه ومساره خاضع كلية لتدبير الخالق. وجاء في أبرز كتبه "مدينة الله"، فلسفته في التاريخ التي تنظر الى العالم والتاريخ نظرة مانوية قائمة على ثنائية الخير والشر ، حيث يرى أن التاريخ مسير بصراع جدلي بين الخير والشر ، الخير المتمثل في "مدينة الله" أي في اتباع الأوامر الالهية وفق ما يتضمنه الوحي والنصوص المقدسة ، ضدا عن الشر المتمثل في المدينة الدنيوية مدينة الفساد وأهواء الانسان.

دافع أوغسطين على فكرة أن الحياة الدنيا ليست الا مرحلة من مراحل التاريخ ، حيث أن الغاية الحقيقية هي الحياة الأخرى ، أو الفردوس الموعود ، وأن الحياة الدنيا في النهاية ما هي الا اختبار ملئه اللذات والشهوات الزائلة. كما رأى اوغسطين أن الخير أو الارادة الالهية ستنتصر في النهاية ، وأن العناية الالهية تدير التاريخ بطريقة محكمة وحكيمة باتجاه غاية معينة لا يعلم الانسان مغزاها في كثير من الأحيان ، لهذا يجب عليه الاعتماد على الوحي والنصوص المقدسة.

فالتاريخ بالنسبة له هو عبارة عن مسرح كبير تديره الارادة الالهية وفق خطة وغاية. والانسان وسائر الموجودات خاضعون لحتمية الارادة الالهية تلك ، التي ستنتصر لا محالة حسبها. وبالنسبة له فلا شيء يحدث بالصدفة ، وما نراه على انه فوضى هو في الحقيقة جزء من الخطة العامة للتدبير الإلهي لمسار التاريخ.

2. الحتمية الطبيعية:

الحتمية (déterminisme) هي فكرة فلسفية ترى بأن كل حدث في الكون بما في ذلك أحوال الإنسان المادية والمعنوية خاضعة لبرمجة وتسلسل منطقي سببي محدد سلفا ضمن سلسلة غير منقطعة من الحوادث التي يؤدي بعضها إلى بعض وفق قوانين محددة، وبالتالي فلا وجود للصدفة أو لحوادث عشوائية. وترى الحتمية أنه لا مجال للإرادة أو الفعل الإنساني، وأن الإرادة الحرة هي وهم يعتقد الإنسان نتيجة جهله بحقيقة القوانين الحتمية الطبيعية.

الحتمية الطبيعية هي إذا نظرية ترى بأن التاريخ له معنى وغاية، مفادها أن هنالك حتميات طبيعية تحدد مسار التاريخ وحياة الإنسان، وغالبا ما تكون هذه البرمجة الطبيعية مخفية ظاهريا عن الإنسان. فالإنسان وفق هذا التصور خاضع ومنفعل للحتمية الطبيعية بدون أن يدري ذلك، مثله كمن يجف في تيارات مائية تفوق قوته، فيتحرك وفق مسارها وإرادتها بالرغم من إرادته قد تكون عكس ذلك. فالإنسان هكذا هو جزء منفعل من الطبيعة الفاعلة، حتى وإن بدا أن هذا الإنسان يتميز بالوعي والتفكير والذكاء الذي يسمح له بأن يكون دوره موجبا في تحريك التاريخ، فإنه يبقى مع ذلك دوره سالبا أمام حتميات الطبيعة، حيث أن له جانبا ماديا متمثلا في جسده وما يتبعه من حاجات بيولوجية تجعله مهما حاول أن يتعالى عن الطبيعة، سواء عبر السرديات الدينية أو العقلانية ، فإنه يضل جزءا منفعلا لا يتجزأ من الكل الطبيعي، الذي تضل له الكلمة الأخيرة في تحديد مسار التاريخ وغايته.

قد تتداخل نظرية الحتمية الطبيعية مع نظرية الحتمية في العناية الإلهية في عدة تفاصيل منها القول بالحتمية التاريخية، وأن التاريخ له معنى وغاية خارج الإرادة الإنسانية ، وأن الإنسان هو غالبا يحتل مكانة الجمهور في مسرح تاريخي له غاية معنى مسبقا الحضور. كما أن الحتمية الطبيعية يمكن أن تكون ذاتها هي الإرادة الإلهية ، حيث تتجلى العناية الإلهية في القوانين الطبيعية وهو ما أشار إليه الفيلسوف باروخ سبينوزا ، عن أن إرادة

الإله تتجلى في قوانين الطبيعة ، فحايث بين المتعالي والأرضي ، لتصبح الطبيعة والإله أمرا واحدا.

يمكن ذكر ثلاثة نظريات تجسد تصور "الحتمية الطبيعية":

نظرية التحليل النفسي (فرويد): يقسم فرويد بين الشعور واللاشعور ، ويرى بأن اللاشعور الذي يمثل الجزء الطبيعي وسلطة الحتمية الطبيعية على الانسان هو المحرك الفعلي للانسان. اما الشعور فهو الجانب الارادي من الانساني، وهو يمثل الجزء السطحي منه. كما ترى نظرية التحليل النفسي بأن هنالك صراع داخل الانسان الواحد، بين الأنا والأنا الأعلى، أي ان الصراع حادث بين "الوعي" والضمير الاخلاقي ضد الغرائز الطبيعية، أي صراع بين ارادة الانسان والحتمية الطبيعية، وهذا ما يمثل أساس التقدم التاريخي.

النظرية التطورية (داروين): حين يرى تشارلز داورين والتطوريون بعامة بأن التاريخ محكوم بقوانين طبيعية قوامها الصراع من أجل البقاء ، صراع تتدخل فيه عديد البرمجيات الطبيعية للأنواع والاجناس من أجل استمرار بقاءها وسيرورة التاريخ. فغاية التاريخ هكذا ليس الفرد بل النوع، فلا يهم مثلا أن يعيش فلان أم علان بقدر ما يهم أن يستمر النوع الانساني، بمعنى أن الانسان الفرد هنا يجد نفسه مجرد أداة لاستمرار النوع، ومجرد ممثل سلبي في مسرحية مبرمجة مسبقا وفق حتميات لا يستطيع الانسان الفرد معها قدرة ولا تغييرا.

النظرية المالتوسية (توماس مالتوس): بالنسبة لمالتوس فإن للطبيعة منطقها وقانونها الخاص الذي يتجاوز الارادة الانسانية، فالطبيعة تنتهي دائما بأن تفرض قانونها مهما أراد الانسان لذلك تغييرا. يرى مالتوس أن التقدم والتطور الانساني وان كان يعني تحسين ظروف الانسان ومعيشته، الا انه أيضا يساهم في زيادة عدد البشر والكثافة السكانية وهو ما يعني استهلاكا أكبر للموارد الطبيعية، فلا تستطيع الطبيعة تحمل ذلك الأمر، حيث يزيد السكان وفق "متتالية هندسية" تفوق بكثير معدلات زيادة الموارد الطبيعية (وفق متتالية حسابية)،

وعليه فإن "كارثة ديموغرافية" ستحدث في شكل كوارث طبيعية، أوبئة وحروب ...، لتعيد الطبيعة فرض منطقتها على حساب الارادة الانسانية.

تظهر النظرية المالتوسية تشائما واضحا، حيث تجعل من الحتمية الطبيعية قانون التاريخ الذي لا يمكن تغييره.

3. الارادة الانسانية

على عكس طرح العناية الإلهية وطرح الحتمية الطبيعية فإن طرح الارادة الانسانية هو طرح يؤمن بأهمية دور الانسان في مسرح التاريخ ، فليس الانسان مجرد منفعل في مسرح تديره الارادة الإلهية، وليس ايضا مجرد كائن تسييره برمجات وقوانين طبيعية، فالإنسان أولا وقبل كل شيء هو كائن عاقل ، يملك وعيا وفكرا وخيالا وذاكرة وضميرا، أي انه يملك القدرة على الاختيار، اختيار مساره الخاص الذي يريده ، بالتالي فعقل الانسان الذي يمثل أهم ميزاته قادر على تغيير وتحديد مسار التاريخ ، أي أن التاريخ يصبح تقدما وتطورا يقوده الانسان. ونجد بوادر هذه النظرية في الفلسفة اليونانية مع السفسطائيين الذين يرون بأن الانسان مقياس كل شيء. ثم نجدها في افكار عصر النهضة التي جعلت من الانسان مركزا للاحداث، بقطيعتها مع التفسيرات الدينية وانتقالها نحو الانسنة. كما تظهر بشك جلي في فلسفة الأنوار والحادثة الأوروبية (القرن 17 و18م) مع عدة مفكرين وفلاسفة أبرزهم كوندرسية وفولتير، الذين صاغوا نظريات في فلسفة التاريخ تؤمن بقدرة الانسان العاقل على تحقيق التقدم التاريخي والتوصل الى الحقيقة والخير. فليس الانسان منفعلا في التاريخ بقدر ما أنه هو الفاعل الأساسي وفق نظرية التقدم الانساني.

تتميز نظرية الارادة الانسانية بـ**التفاؤل التاريخي**، الذي يرى بقدرة الانسان على الفعل في التاريخ، وما يتبع ذلك من امكانية تحقيق الخلاص من خلال تطوير ذاته ومحيطه بما يساهم في تغيير مسار التاريخ، بما يخدم مصلحة الانسان وخيره.

تجعل كذلك نظرية الارادة الانسانية من الانسان مركز التاريخ وكل الاحداث، وبالتالي فكل الاحداث تدور حول الانسان ومن خلاله. فلا وجود للتاريخ الا بوجود الانسان. ومنه يمكن القول أن غاية التاريخ ومعناه انساني بامتياز وفق هذه النظرية.

4. التاريخ العبثي

يقصد بمفهوم "التاريخ العبثي" أن ينظر للتاريخ على أنه لا يحتكم لقوانين خاصة تحدد سيره، فالتاريخ هنا لا تحكمه قوانين معينة. ذلك أن البحث عن معنى وغاية من التاريخ يتطلب أولاً القول بوجود ومعنى وغاية ومسار لهذا التاريخ. وهنا يطرح السؤال هل فعلاً يوجد معنى وغاية من التاريخ؟

يرى الفيلسوف الانجليزي ممثل الفلسفة الشكية "ديفيد هيوم" أن توالي وتكرار الظواهر طوال فترة زمنية طويلة لا يعني أنها قوانين مطلقة ، ولا يعني أنها دائمة الوجود ، فالأمر المؤلف وجوده يقود غالباً الى التسليم بأنه يشكل قانوناً مطلقاً مصدره العقل أو القوى المتعالية، لكن الأمر ليس ذلك واقعا، فلا شيء يضمن تكرار تلك الظواهر في المستقبل القريب أو البعيد، فتغير الأسباب يؤدي ضرورة الى تغيير النتائج. نفس الأمر ينطبق على التاريخ بهذا المعنى فمسار التاريخ في الماضي والحاضر لا يضمن بالضرورة صياغة قوانين كلية تفسر معنى ومسار وغاية التاريخ.

تؤسس "أسطورة سيزيف" اليونانية الى مفهوم العبثية في الحياة، والعبثية هنا هي فلسفة تتلخص في أن مجهودات الإنسان لإدراك معنى الكون دائماً ما تنتهي بالفشل الحتمي (وهي لذلك عبثية) وذلك لأن هذا المعنى المنشود غير موجود أساساً، على الأقل فيما يتعلق بالإنسان الفرد. وأبرز ممثلي فلسفة العبثية هو الفرنسي ألبيير كامو. كما أن الفيلسوف الألماني شوبنهاور لديه عبارة شهيرة تلخص هذا الوضع حيث يرى ب"أن الوجود الانساني لا بد أن يكون نوعاً من الخطأ".

الإنسان وفقاً للعبثية يبحث منذ الأزل عن معنى للحياة، هذا البحث ينتهي بالوصول إلى نتيجتين هما: إما أن الحياة دون معنى، أو أنها تحتوي على هدف وضعته قوة عليا، وذلك عبر الإيمان بالله أو اتباع ديانة أو مفهوم مجرد آخر. أو انها خاضعة لنظام معين يتوصل اليه العقل بتجرباته ، وحين ينتفي الإيمان بالمقدس المتعالي وتتصدق مصداقية العقل

والعقلانية ، فان هذا الايمان بمعنى التاريخ يسقط أيضا ، فيصبح التاريخ ، معناه ، والغاية منه محكوما بنوع من العبث ، وهذا ما نجده مثلا في تفسيرات نشأة الكون في كثير من نظريات الفيزياء المعاصرة التي ترده لعامل الصدفة.

ممحور الثالث : مسار التاريخ

إذا كان سؤال المعنى أحد أهم الاسئلة التي تطرحها مختلف فلسفات التاريخ ، فإن سؤالاً آخر لا يقل أهمية مطروح في هذا السياق ، ألا وهو سؤال مسار التاريخ. فهل للتاريخ مسار محدد ؟ وما هي طبيعته؟ وما هي قوانينه المسيرة؟

1. مسار التاريخ خطي

يقصد بنموذج التفسير الخطي للتاريخ ، تصور التاريخ على انه خط مستقيم ينطلق من نقطة بداية وصولاً الى نقطة نهاية ، أي أن التاريخ يتطور وفق سيرورة تاريخية تحددها قوانين معينة وغاية محددة. فالتاريخ معناه هنا يتحدد من خلال الغاية التي يبلغها. وطبيعة مساره تحدده القوانين التي تحكم سيرورته.

اعتبر فلاسفة عصر الانوار أن التاريخ يسير باتجاه التقدم ، تقدم يحكمه تطور العقل والتفكير الانساني. في حين اعتبر الفكر الديني التاريخ محكوماً بعناية إلهية تحدد مساره ، كما ترسم غايته من البداية الى النهاية.

كمثال عن نظريات المسار الخطي في فلسفة، يمكن ذكر ثلاثة نماذج :

نظرية القديس أوغسطين: بالنسبة لاغسطين ومثلما تم استعراضه سابقاً في نظريته عن العناية الإلهية، فإن للتاريخ مسار خطياً، ترسم خطواته وغايته الإرادة الإلهية وتسير مراحله العناية الإلهية. وقد حدد أوغسطين فيه لحظة رمزية للبداية وأخرى للوصول الى الغاية، التي تتجسد حسبه في ظهور المسيح والمسيحية وتجسيدها في مؤسسة الكنسية، وبالتالي بلوغ مرحلة "مدينة الله" التي تمثل غاية التاريخ وفق ما تصور أوغسطين ذلك.

هيجل: يرى هيجل أن مسار التاريخ هو عبار عن مسار خطي مستقيم يتطور باتجاه الروح المطلق أو العقل ، وهذا التطور محكوم بعملية جدلية ، وصراع الأضداد. ويرى هيجل بأسبقية العقل على المادة ، بمعنى أن تطور العقل والروح هو من يؤدي الى تطور العالم

المادي. والتاريخ مساره هنا هو مسار تطوري باتجاه اكتمال العقل. أساسه جدلية السيد والعبد وتطور مسار التاريخ وفقها نحو بلوغ غايته. حيث يتجسد هذا في التطور اجتماعيا وثقافيا في اتجاه الحرية وسياسيا في اتجاه الدولة أو النظام الليبرالي الديمقراطي.

ماركس: اذا كان كارل ماركس يستلهم من الجدل الهيجلي منهجه ، ويقول هو أيضا بأن مسار التاريخ هو عبارة من مسار خطي مستقيم قوامه التطور، فانه يخالف هيجل في القول بأن المادة سابقة عن العقل. فبالنسبة لماركس فان الجدل الهيجلي كان يسير مقلوبا ، لأن تطور التاريخ هو تطور العالم المادي للانسان ، وهذا التطور المادي محكوم بقانون جدل الأضداد وتطور وسائل الانتاج (نظرية الجدلية المادية). وعلى العكس من هيجل ، فان ماركس يرى بأن تطور العالم المادي بابعاده الاقتصادية والاجتماعية (البنية التحتية) هي من يقود الى تطور العقل وعالم الافكار (البنية الفوقية). اذا فمسار التاريخ عند كارل ماركس هو تطور جدلي مادي باتجاه غاية ، هي النظام الشيوعي (سياسيا) ، وتحرر الانسان من الاغتراب الناتج عن مختلف الأغلال الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي كانت تكبله في مختلف مراحل التاريخ قبل الوصول الى غايته (الشيوعية).

2. مسار التعاقب الدوري

المقصود به أن التاريخ يسير في شكل دورات متتالية ومتشابهة غالباً، بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد بأشكال متقاربة، وتترتب عليها النتائج نفسها. ويمثل هذا الأمر القانون العام لمسار التاريخ ، حيث تتحدد طبيعة المسار الدوري والتعاقبي بطبيعة القوانين المفسرة لمسار التاريخ داخل كل نظرية تفسر مسار التاريخ. كما يرى هذا الاتجاه أيضاً أن التاريخ يسير مسار دائري متواصل يخضع له الإنسان والشعوب والحضارات.

يرى هذا الاتجاه أن كل شيء يبدأ ثم ينتهي ، ينمو ثم يذبل ، يختفي من الوجود ثم يعود مرة أخرى من جديد ، في شكل حلقات متشابهة، كل بداية لا بد وان يعقبها نهاية ، وكل نهاية هي بداية لدورة جديدة. مثلما هو الأمر بالنسبة لدورة الحياة عموماً.

ومن أهم الفلاسفة الممثلين لنظرية التعاقب الدوري في تفسير التاريخ: **بن خلدون ، فيكو.**

✚ بن خلدون:

رأى بن خلدون (1332م - 1406 م) أن التاريخ ليست له غاية واضحة، سواء الهية كانت أو وضعية. ومن خلال ملاحظته للأحداث التاريخية وما يظهر فيها من صعود وأفول مستمر للدول والحضارات، توصل الى استنتاج مفاده أن التاريخ يسير في شكل أدوار لا متناهية، تشابه دورة الحياة الذي تحياها الكائنات الحية، من الولادة الى الموت. فما ينطبق على الكائن الحي ينطبق على المجتمع والدولة.

من أهم العوامل التي تتحكم في مسار نهوض وسقوط الدول والحضارات عن بن خلدون هي:

أ- العوامل الجغرافية التي تحدد طبيعة أخلاق الناس وقواهم الجسدية وعلاقتهم بالآخرين، فساكن الصحراء يعيشون حياة صعبة تعلمهم الشدة والقسوة الذي يكتسبون منها في صراعهم من

أجل البقاء مع جيرانهم ونظرائهم. أما سكان السواحل فيتفاعلون مع غيرهم من خلال الاستكشاف. وغيرهم

ب- العصبية: تلك الرابطة الاجتماعية التي تربط أبناء القبيلة أو أي جماعة أخرى، وتجعلهم يتعاونون في الشدة والرخاء. ووفق رؤيته تبدأ ولادة الدولة في البادية، لأن البادية هي الأصل، والبادوة تقوم على العصبية القبلية، والعصبية القبلية تدعو إلى التغلب. وعليه تنشأ الدولة أولاً في القبيلة ذات العصبية القبلية القوية، وتشبه هذه المرحلة مرحلة ولادة الإنسان.

🚩 أطوار مراحل التعاقب الدوري (أطوار الدولة)

1. مرحلة التأسيس والبناء: تشبه هذه المرحلة مرحلة ولادة الانسان وتكون فيها العصبية في أقوى درجاتها، وفي هذا الطور يتم بناء الدولة بغزو القبائل البدوية ذات العصبية القوية والتي أكسبت بيئة حياة البادية الصعبة والقاسية أفرادها قوة وجلدا على شؤون الحرب والغزو، للدولة السابقة. وحين تتوفر الشروط الضرورية تسقط الدولة القديمة الهرمة التي اصابها الوهم والانحلال بفعل زوال العصبية وانصراف اهلها عن شؤون حماية دولتهم وانشغالهم بترف الحياة، وتتأسس الدولة الجديدة الفتية على أنقاض الدولة القديمة.

2. مرحلة التوسع: ثم تنتقل الدولة إلى مرحلة التوسع، حيث تقوم القبيلة بغزو المناطق المجاورة لها واحتلال أراضي زراعية غنية، فيتحول البدو الرحل إلى حياة الاستقرار والتحضر والتنعيم بمستوى اقتصادي أعلى. لكن العصبية في هذه المرحلة تبدأ تضعف تدريجيا، ويصبح همها الأساسي هو جمع اكبر عدد من الأفراد المؤيدين، وبذلك تتحول سلطة القبيلة إلى سلطة الفرد الواحد. وهذه المرحلة تتماثل مع مرحلة الشباب عند الإنسان.

3. الازدهار ثم تأتي مرحلة ازدهار الدولة، حيث يرتفع مستوى المعيشة وتتوسع المدن وتتقدم التجارة والصناعة ويزدهر العمران. وهي مرحلة تدفع إلى الجاه والسلطة، أين تتراكم الثروة والبذخ والإسراف، ولا يعود للعصبية من وجود، لان الدولة تعتمد في هذه المرحلة على

الجيش والشرطة لفرض الأمن والنظام. وتشبه هذه المرحلة مرحلة الرجولة عند الإنسان. وهي المرحلة التي تصل فيها الدول لقمة عنفوانها.

4. مرحلة الكفاية: أما مرحلة الكفاية والدعة، ففيها يقلد الحكام من سبقهم فلا يبدعون، وتتحول الدولة بالتدريج إلى مرحلة الهرم والشيخوخة، فتبدأ مرحلة التفكك. وعليه تصبح الدولة مريضة ولا أمل في شفائها.

5. مرحلة التفكك والانحيار: تأتي المرحلة الأخيرة المتوجة لنهاية الدولة، حيث تقوم قبيلة بدوية ذات عصبية قبلية قوية بالهجوم والإجهاز على الدولة المفككة وتستلم السلطة بقوة عصبيتها. وهكذا يسير التاريخ تواليا بين صعود الدول وتفككها بشكل دوري يشبه دورة الحياة.

+ فيكو:

يعتبر جيانباتيستا فيكو Giambattista Vico (1668 - 1744) الفيلسوف الايطالي أهم منظر لفلسفة التاريخ الحديث، فقد رأى فيكو ان التاريخ يتطور الى الأمام، لكن على شكل حلقات لولبية، فالتاريخ ليس تقدما خطيا، بل هو تقدم وفق مسار تعاقد دوري، تنشأ فيه الحضارات وتزدهر ثم تسقط، لكن الأخيرة دائما تبدأ من حيث توقفت الأولى، وهكذا يسير التاريخ تقدما للأمام.

بالنسبة لفيكو فان حلقة التعاقد الدوري تتشكل من ثلاثة مراحل :

- **المرحلة الأولى: هي المرحلة الدينية أو الإلهية**، وفيها ما يزال الانسان يخاف من المجهول، وما تزال المجتمعات الانسانية تسير من قبل نخبة دينية ووفق تفاسير دينية غيبية.

- **المرحلة الثانية: هي مرحلة الأبطال،** وفيها يظهر الأبطال والآباء المؤسسون لكبرى الحضارات والدول، فيتوسعون ويشيدون، ويقودون الانسانية لفتوحات وتغييرات وتطورات. وتتميز هذه المرحلة بأن أهواء الأفراد والشخصيات البطولية هي من تسير التاريخ.

- **المرحلة الثالثة والأخيرة: هي مرحلة الإنسانية،** وفي هذه المرحلة يتطور الفكر الانساني وينضج العقل، حيث تمثل المرحلة النهائية للتطور الحضاري، أين تسود فيها العقلانية والحرية وتنتشر أفكار المساواة والعدالة. وفي هذه المرحلة تتطور الحقوق المدنية والسياسية، وتنتفي الفوارق الطبقية.

لكن الوصول الى المرحلة الثالثة والنهائية لا يضمن الخلاص للإنسانية بحسب فيكو، لانه لا شيء يضمن حدوث صراعات وحروب داخلية مدمرة داخل تلك الحضارات والدول، وهو ما يعني انهيارها وسقوطها، وعودتها الى المرحلة الأولى!

المحور الرابع :

نظريات معاصرة في فلسفة التاريخ

انتهت مرحلة الحرب الباردة بين المعسكر الاشتراكي السوفييتي وبين الغرب الليبرالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، بانتصار الليبرالية وسيادتها على الساحة العالمية، فسادت الليبرالية اجتماعية والديمقراطية اقتصاديا والرأسمالية اقتصاديا، وبدى أنه لم يبق في الساحة خصم جدير منافس لها. فدخلت الانسانية في عصر ما يسمى بـ"العولمة". في خضم هذه الأحداث عادت نظريات فلسفة التاريخ للظهور، حيث سيعلم مفكر أمريكي من أصل ياباني مهلا بانتصار الأيديولوجيا الليبرالية بأن تطور النظم السياسية في التاريخ قد وصل الى ذروته مع نموذج الديمقراطية الليبرالية، وبأن تاريخ تطور الانسانية قد توقف عند هذا الحدث، ولن يكون هنالك من جديد على مستوى السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي. معلنا أن الانسانية قد وصلت الى مرحلة التاريخ التي تحدث عنها هيجل قبل قرنين من الزمان، لكن مفكرين آخرين ردوا على هذه الأطروحة بالنقيض، وأعتبروا أن تصاعد الحروب والصراعات في كل أنحاء العالم اليوم، ينذر بالأطر، وبأن التاريخ ما يزال مفتوحا، وعليه فما هي أهم نظريات فلسفة التاريخ المعاصرة هذه:

1. نهاية التاريخ: ¹

رأى الكسندر كوجيف (Alexandre Kojève) في مجمل تأويله لفلسفة هيجل وأحداث القرن العشرين ، أن النمط الأمريكي في العيش قد انتصر ، وأنه دون غيره سيكون تجسيدا لنهاية التاريخ. وانطلاقا من هذه الفكرة سيعمد فرنسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) الى صياغة أحد أكثر الطروحات الفكرية شعبية وإثارة للجدل في المدى الفكري الراهن ، أي طرح نهاية التاريخ ، القائم بسيادة العولمة وانتصار نموذج الديمقراطية الليبرالية.

¹ مرجع النص (أيمن بوطرفة)، سؤال العدالة في الفلسفة السياسية الراهنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2022، من ص164 الى ص168.

يستند فوكوياما في البرهنة على اطروحة نهاية التاريخ الى تراث من الفلسفة الغربية، حيث يأخذ هيجل فكرة أن للإنسان حاجات وجودية تفوق حاجاته المادية (الحاجة لغذاء والمأوى ومختلف الحاجات البيولوجية)، ويأخذ من أفلاطون فكرة أن النفس مقسمة الى ثلاثة أجزاء، وأن الجانب الغضبي (الثيرموس) يعني ارادة الانسان في الحصول على الاعتراف، اعتراف بالمساواة مع البشر الآخرين، واعتراف بالتفوق على الآخرين، وقد فسر فوكوياما التاريخ من خلال قانون جدلية الصراع من أجل الاعتراف (جدلية الثيرموس)، التي اعتمد في صياغتها على جدلية السيد والعبد كما أخذها من عند هيجل. واعتبر أن التاريخ يمثل تطورا خطيا يحكمه منطق الصراع من اجل الاعتراف، وأن نهاية ستتحدد بنهاية تلك الجدلية. ورأى أن الليبرالية الديمقراطية وحدها هي من يمكن لها أن تكون نهاية تلك الجدلية وبالتالي نهاية التاريخ.

من هنا يأخذ فوكوياما فرضية "شيخوخة الفكر البشري" ، وهي فكرة هيجلية، تفترض الانطلاق من تصور مسار خطي للتاريخ يهدف الوصول الى غاية محددة. ففي التراث الفلسفي الغربي نجد أن مصادر هذا الطرح تعود في أول الأمر لأصلها اللاهوتي ، أي التصور المسيحي لمسار التاريخ. "إن أول روايات عن تاريخ عالمي حقيقي في التراث الغربي هي روايات مسيحية ... فمؤرخ مثل أغوستين الهيبوني لم تكن تهمه التواريخ الخاصة بالإغريق أو اليهود باعتبارهم اغريقا أو يهودا ، وإنما كان يهمه خلاص الانسان بوصفه انسانا ، وهو حدث يشكل تحقق الارادة الالهية في الأرض.

ومع الحداثة تم علمنة هذا التصور وأنسنته من حيث أن الحداثة ذاتها تمثل عملية نزع التفسير السحري عن العالم (désenchantement) على حد تعبير ماكس فايرر (max weber). وفي هذا تظهر تصورات فولتير وكانط وماركس وخصوصا هيجل الذي رأى في التاريخ سيرورة غائية نحو العقل أو روح العالم. فكان هيجل بهذا أهم من قال بمرحلة شيخوخة الفكر البشري ، كغاية لنضج الفكر البشري أو بالأحرى الوصول الى غايته النهائية.

يمكن القول اذا أن نظرية نهاية التاريخ تمثل تصورا خطيا لتاريخ الفكر البشري ، يصل مع نموذج الانسان الحديث لغايته، أي الى نهاية تاريخه بالمفهوم الهيجلي. فالإنسان مر بمرحلة الطفولة في مجتمعات ما قبل الدولة، ثم وصل مرحلة الشباب والفتوة مع بداية ظهور الدولة ومحاولات تشييد الحضارات، التي ميزها الاندفاع للغزو والحروب الدموية. بعدها شهد مرحلة الكهولة مع تسلسل مراحل بناء مفهوم الدولة الحديثة وقيمها. وهاهو اليوم ومستقبلا يدخل مرحلة شيخوخته، أي نهاية التاريخ، التي تتميز مثلها مثل مرحلة شيخوخة الفرد البشري طبيعيا بالهدوء والسكينة، وما يرافقها انطفاء الطاقة الخلاقة. هذا التصور يُدْكَر بالتفسير البيولوجي للحضارات كما يوجد عند اسزوالد اشبنجلر (Oswald Spengler) ، لكن هذا الأخير يأخذ بمسار الدورات الحضارية، ومعناه أن: "لكل حضارة إمكاناتها الخاصة للتعبير عن ذاتها ، هذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل ولن يعود أبدا. وفي المقابل يظهر تصور المسار الخطي التطوري عند هيجل.

إن تصور شيخوخة الفكر البشري هو تصور يندرج في منظور التاريخ العالمي، وهو تصور يحيل ضرورة لمفاهيم من قبيل نهاية التاريخ، نهاية الفكر، نهاية الفلسفة، نهاية الأيديولوجيا ... أو ما يعرف عامة في قاموس ما بعد الحداثة بفلسفة النهايات. وتجعل أحداث الزمن الراهن هذا التصور يبرز على الواجهة بوصفه تشخيصا لروح العصر .

بهذا يتم الانقياد الى التساؤل حول مصير الانسان ومستقبله في ظل هذه المعطيات والمستجدات ، خصوصا وأن المفهوم والمصطلح ذاته يبقى غامضا وغير واضح كفاية. ف"موت الانسان" لا يعني نهاية الجنس البشري بقدر ما يعني نهاية حقبة معينة من الوعي البشري ، حيث يرتبط هذا الوعي بنوع من القطيعة مع مختلف المكتسبات التي حصلها الانسان طوال تاريخه من ميتافيزيقا ، أيديولوجيا ، أديان ، فلسفات وأفكار .

من هنا يفترض طرح نهاية التاريخ بأن الانسان قد وصل الى مرحلة الهرم الفكري، أي أنه لم يعد قادرا على ابتداع منظومات قيمية جديدة ، وأن أفكاره أصبحت عقيمة وغير قادرة على

صنع أي قداسة جديدة لأي انتاج قيمي جديد يوحد القوى البشرية للنهوض بأي مشروع كبير جديد .

بمعنى أن طرح نهاية التاريخ يعني نهاية تأثير السرديات الكبرى من أديان وأيديولوجيات، ويتزامن طرح نهاية الايديولوجيا هذا مع تصاعد النزعة الفردانية التي تعني أن الفرد أصبح يمثل القيمة العليا لذاته وبذاته، بالخصوص في مجتمعات الدول الكبرى والمتقدمة، أين تهيمن النزعة الليبرالية بجلاء.

ان طرح شيخوخة الفكر البشري يحيل ضرورة الى مرحلة نهاية التاريخ، التي ترتبط في الخطاب الفكري الراهن بالعولمة في أبعادها الكونية، والتي تعني أيضا ظهور مفهوم خاتم البشر أو الانسان الأخير، باعتباره نموذج انسان هذه المرحلة.

2. صدام الحضارات: ²

تنطلق نظرية صدام الحضارات أو الثقافات من فرضية مخالفة لنظرية نهاية التاريخ في تصور الغاية والمسار، ففرضية صدام الحضارات تبدأ من تفسير حركة التاريخ وفق مسار دوري، وقوانين هذه الحركة هي الصراع والتنافس بين الثقافات والحضارات المختلفة. وقد برزت هذه النظرية بشكل جلي بُعيد أحداث تسعينيات القرن الماضي وما تبعها من صراعات وحروب وتجاذبات نعيش نتائجها اليوم. وقد برز في هذا السياق عديد الأسماء الفكرية، نذكر منهم "برنارد لويس" و"المهدي المنجرة" و"صموئيل هنتغتون".

ردا على أطروحة نهاية التاريخ الفوكويامية، أصدر "هنتغتون" (Samuel 2008 - 1927) Phillips Huntington) كتابا في سنة 1996 كان له صدى واسع في الساحة الفكرية، قارب وتجاوز أطروحة نهاية التاريخ، هذا الكتاب عنوانه الرئيسي "صدام الحضارات"، وفكرته الرئيسية تأتي رافضة لمقولة نهاية التاريخ القائلة بأن انتصار الليبرالية الديمقراطية حتمي، وبأن العولمة ستكون مجالا ساكنا، لا حرب ولا مشاكل سياسية كبرى فيه. فبالنسبة للطرح الصدامي، فإن التاريخ مقبل على أحد أكثر مراحل خطرا، عكس ما يحاول طرح النهاية أن يروج له بطرحه التفاوضي الساذج، الذي يسكت عن كثير من الأمور حول الذات، الهوية، الثقافة والتاريخ.

يعتمد هنتغتون على قراءة أعمال برنارد لويس (Bernard Lewis)، المختص في الدراسات التاريخية الإستشراقية في المنطقة الشرق أوسطية تحديدا. وهو القائل بفكرة صراع الهويات الدينية، وصراع المركز مع الأطراف، والصراع داخل مركز الحضارة ذاتها. حيث سينحل هنتغتون هذه المقولات في صياغة نظريته عن صدام الحضارات.

² مرجع النص (أيمن بوطرقة)، النظام العالمي الجديد والشرق الأوسط: قراءة في مقاربات الخطاب الفكري الأمريكي، مجلة شؤون الأوسط، العدد 157، ربيع 2018، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت، لبنان، من ص13 إلى ص16)

يرادف هنتنغتون من جهة بين الثقافة والحضارة ، ويربط الهوية الحضارية بالفكرة الدينية من جهة أخرى. ففي تقسيمه للحضارات يربط كلا منها بدين معين (الإسلامية ، الغربية(مسيحية) ، الأرثوذكسية ، البوذية ...). وهته الهوية الدينية هي ما يشكل جوهر الحضارة المسئول عن قدرة هته الحضارات على الصمود عبر الزمن. الهوية الدينية الحضارية تمثل هوية صلبة ، أي أنها في عملية التلاقي مع الهويات الأخرى تهدد بالتصادم مع غيرها. حيث يصل هنتنغتون إلى استنتاج أن الهوية الإسلامية والهوية الصينية هما أصلب هته الهويات. وحيث أن الأولى بفعل طبيعة خطابها الكوني فإنها تعتبر هوية متصادمة مع غيرها بالطبيعة ، خصوصا مع هوية الحضارة الغربية التي تحمل مشعل لواء ما يعرف بالنظام العالمي الجديد ذو الطبيعة الكونية هو الآخر.

نتوقف هنا عند فكرة العولمة ،فان هنتنغتون ينطلق من نقد طرح فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ ، حول نهاية الثقافات والحضارات لصالح النموذج الأحادي المنتصر أي نموذج الحضارة الغربية والنظام الثقافي السياسي الليبرالي الديمقراطي. يقول صاحب صدام الحضارات بعالم متعدد الحضارات ومتعدد الأقطاب وهذا ما قصده بعنوان كتابه النظام العالمي الجديد. إن انتصار الأيديولوجية الغربية على نظريتها الاشتراكية السوفييتية والذي عنى ضمنا نهاية عهد الثنائية القطبية لا يفترض بنا أن نتسرع في تصور النظام العالمي الجديد على أنه انتصار للقطب الواحد والنموذج الواحد كما أشار فوكوياما في غمرة تهليله بسقوط الاتحاد السوفيتي في كتابه الصادر سنة 1992م . بل إن النظام العالمي الجديد قائم على تعدد الحضارات والأقطاب ، وهذا ما ستبرهن عليه الأحداث الواقعية على حسب رؤية هنتنغتون . ولكن مع ذلك فان التنوع الحضاري هو ذاته ما يمثل خطرا قائما في الأفق. إن الهويات المتصادمة والمتعولمة تهدد بحدوث صدام عالمي إذا ما توفرت لها الظروف المناسبة ، وحيث أن العالم يحفل ببؤر صدام نائمة تنتظر فقط المحفزات الضرورية لتشتعل من جديد. وأهمها هي منطقة الشرق الأوسط بحدودها الدموية على تسمية هنتنغتون.

يرى هنتنغتون أن الصدام حتمية تاريخية ولا يمكن لنظام عالمي أن يسمى بنظام عالمي شامل إلا إذا قام بقبول فكرة التعدد الثقافي والحضاري ، لكن هذا التعدد يحمل في طياته بذور الصدام _وما الشرق الأوسط إلا أبرز دليل على نظرية صدام الحضارات كما سبق الإشارة إليه_. وهنا تكمن المفارقة ، فهنتنغتون يقول بفكرة الصدام على مستوى الخطاب المصرح به للقبول بالتعدد الثقافي والحضاري. ومن جهة أخرى يعمل على مستوى ما وراء الخطاب على تحفيز الحضارة الغربية وعلى رأسها الو.م.أ للبقاء على أهبة الاستعداد عسكريا لغرض الحفاظ على سيادة النظام العالمي في مواجهة التحديات التي تطرحها طموحات الهويات الحضارية الأخرى المتصاعدة.

بمعنى آخر فإن طرح صدام الحضارات يرسم حدودا غير قابلة للتجاوز بين الأنا والآخر، بين الصديق والعدو، ويؤصل لامتداد العداوات التاريخية الى راهنا المعاصر. ويجعل من الصراع والصدام بين الهويات الجمعية (الحضارات والثقافات) أساسا لحركة التاريخ.

ككلمة ختامية لمباحث هذا المقياس الذي قادنا الى رحلة في مختلف سياقات وأسئلة ونظريات فلسفة التاريخ، فيمكن القول أن فلسفة التاريخ مبحثٌ هامٌ من المباحث الفلسفية الحديثة العهد في الفكر الفلسفي، تنتمي الى حقل الدراسات الفلسفية مثلما تنتمي الى دراسات علم التاريخ، تظهر ارهاصاتِها في مختلف الفلسفات منذ القديم، ونجد محاولات تأسيسية لها منذ القديس أوغسطين لبن خلدون، لكنها لم تتضح كعلمٍ مستقلٍ إلا في القرن السابع عشر، وقبلًا تحدّدت معالمها في القرن الثامن عشر الذي شهد العديد من فلاسفة التاريخ أمثال فيكو ومونتسكيو وفولتير وكوندورسيه وهردر وغيرهم. وبلغ الاهتمام بالدراسات التاريخية ذروته في القرن التاسع عشر على يد أعلام هذا القرن أمثال هيجل وكونت وماركس. وترجع أهمية فلسفة التاريخ إلى حيوية موضوعها حيث تتناول بالدراسة حركة المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب انهيارها وسقوطها في مرحلةٍ معينةٍ من تاريخها، والقوانين التي تحكم حركة التاريخ وتطوره"³.

³ عطيات أبو السعود ، فلسفة التاريخ عند فيكو ، مؤسسة هنداوي، مصر ، 2021 ، ص7 -بتصرف-

عناوين مراجع في المقياس:

- ✚ إلفين توفلر ، حضارة الموجة الثالثة
- ✚ أيمن بوطرفة، سؤال العدالة في الفلسفة السياسية الراهنة
- ✚ جيرار لكيلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك
- ✚ دييتر سنغاس، الصدام داخل الحضارات التفاهم بشأن الصراعات الثقافية
- ✚ رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ (نظريات في فلسفة التاريخ)
- ✚ رالف بارتين بيرى، آفاق القيمة دراسة نقدية للحضارة الانسانية
- ✚ سيغموند فرويد، الطوطم والحرام
- ✚ صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات: اعادة صنع النظام العالمي
- ✚ عبد الحليم مهورباشة، فلسفة التاريخ مدخل الى النماذج التفسيرية للتاريخ الانساني.
- ✚ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة
- ✚ عبد الله العروى، مفهوم التاريخ الألفاظ والمذاهب المفاهيم والأصول
- ✚ عطيات أبو السعود، فلسفة التاريخ عند فيكو
- ✚ غوستاف لوبون، سر تطور الأمم
- ✚ فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر
- ✚ ماكس هوركايمر ، بدايات التاريخ البورجوازية
- ✚ مصطفى النشار، فلسفة التاريخ